فذلكة

عن الزراعة والصناعة والتجارة فى مصر

بقلم المسيو ب. س. جيرار

كبير مهندسى الكبارى والجسور ، عضو المجمع العلمى الملكى ، وعضو معهد الآثار الشرقية ، وحامل وسام اللجيون دونور الملكى من درجة « فارس »

على أثر احتلال الجيش الفرنسى لمختلف الأقاليم المصرية كلفت أن أصعد مجرى النيل الى الشلال الاول ، لاتبين تأثير النهر فى خصب هذه المنطقة ، وأجمع المواد التى يقتضيها وضع تخطيط عام لطريقة ريها .

برحت القاهرة فى ٢٩ فنتوز سنة ٧ (١٧ مارس سنة ١٧٩٩) يصحبنى نفر من أعضاء لجنة الفنون ، وكان كل منا يهتم أثناء رحلتنا بالمباحث التى تدفعه اليها نزعته الخاصة .

ولما كان أهم ما توخيته هو تنسين حالة البلد ، لزمنى بادىء ذى بدء أن أجمع المعلومات الصحيحة عن حالته الراهنة ، ومن الموارد التى تأتيه من الزراعة والصناعة والتجارة ، وبهذا تحدد بالتدقيق مدار طلبى للمعلومات ، وقد توفرت على تبين أدق التفصيلات الداخلة فى هذا المدار وحصرت جهودى كلها فيه .

وقد شرعت منذ بدء رحلتنا أسجل فى مفكراتى اليومية كل ماحصلت عليه من معلومات ، كنت استفيدها آنا من مشايخ البلاد الذين كنت أستدعيهم ، وآنا من عامة الزراع الذين التقى بهم ، وكثيرا ما استقيتها

● كانت مساحة الفدان فى ذلك العهد أكبر منها الآن ، اذ كان الفدان ٤٠٠ قصبة مربعة ، وطول القصبة ٣ أمتار و ٥٥ سنتيمترا ، فجملة مساحة الفدان ٥٩٢٩ مترا مربعا ، يقابل ذلك أن الفدان الآن ٣٣٣١/٣ قصبة مربعة ، وأن طول القصبة ٣ امتار و ٥٥سنتيمترا وأن مساحة الفدان ٤٢٠٠ر٨٣ مترا مربعا . فعلى القارىء أن يلاحظ هذا الفرق عند اطلاعه على الارقام الواردة فى هذه الفذلكة .

البودقة كانت من النقد المتداول فى ذلك الحين ، وكانت البودقة تساوى ٩٠ ميدى والميدى الذى كان متعاملا به فى ذلك الوقت هى البارة العثمانية .

اما القرش الذى صكه العثمانيون فى الستينات من القرن الثامن عشر ، فيساوى ٤٠ بارة .

● الجزءان الخاصان بالصناعة والتجارة من هذه الفذلكة لم يترجما اكتفاء بالجزء الخاص بالزراعة .

من جوالة مصريين كنا نستقبلهم فى مركبنا . ولما لم يكن فى الغالب على الترجمان الذى يصحبنا الا أن يوجه نفس الاسئلة الى الاشخاص الذين كنت أخاطبهم ، فانه لم يعتم أن أدرك لباب اجاباتهم . واذا كانت تلك الاجابات لم تصدر دواما عن حسن نية فانى على يقين أنها ترجمت الينا ترجمة أمينة .

لم تكن جيوش الجنرال «ديزه» قد احتلت الجزء الاعلى من الصعيد بأكمله حين بلوغنا أسيوط ، ولذلك مكثنا فى هذه المدينة من ٢٨ مارس الى ١٨ مايو الذى يليه . وقد شهدت فى تلك الاثناء طرفا من أعمال الحصاد وتتبعتها باهتمام شديد ، وسنحت لى بها الفرصة لاعرف من أفواه الزراع انفسهم ماذا كان يجرى من أعمال الزراعة فى سائر فصول السنة .

ثم ذهبنا بطريق البر ، وبمراحل قصيرة ، نتابع ضفة النيل اليسرى من أسيوط الى قنا ، فبلغناها يوم ٢٥ مايو ، ووجدنا فيها الجنرال « بليار » حاكم ذلك الاقليم يستكمل عدته لحملة يستولى بها على ميناء القصير ، وتلك الحملة أتم تأهبها فى صباح اليوم التالى لوصولنا ، وكان تسييرها أصلح الفرص لتعرفى داخلية الصحراء التى تفصل وادى النيل من البحر الاحمر ، وللاستفهام عما كنت فى حاجة الى الوقوف عليه عن التجارة بين مصر وبلاد العرب من هذا الطريق . فشخصت الى القصير مع الحملة ، وقصارى ما فعلت هو أنها وضعت حامية فرنسية فى ذلك الميناء ثم عدنا منه يوم ١٤ يونيه .

أقمنا فى قنا الى السادس والعشرين من يونيه ، وفى هذه المدينة كما فى أسيوط امتد بى الوقت لاثبت أو أصحح ما كنت قد أفدته عن الاعمال والمنتجات الزراعية ، ولاتبين ما كانت تختص به تلك الاعمال والمنتجات فى ذلك الجزء من القطر المصرى ولاعرف ما هى الصناعات المختلفة التى يتعاطاها أهله .

ثم تتبعنا ضفة النيل اليمنى الى اسنا ، فبلغناها يوم ٣٠ يونيه ، ولم أفد فى هذه المدينة مزيدا على المعلومات التى كنت قد حصلت عليها فى أسيوط وقنا مما يتعلق بمباحثى . وبعد أن مكثنا فيها تسعة أيام زايلناها يوم ٩ يوليه فى طريقنا الى الشلال الاول . وفى يوم ١٢ يوليه نزلنا فى أسوان فظللنا فيها الى اليوم السادس والعشرين . وفى اليوم الثلاثين كنا قد عدنا الى أسنا فمكثنا فيها عشرة أيام ، ثم استأنفنا السير لنزور منبسط طيبة ، فوصلنا يوم ١١ أغسطس ، واقمنا بدءا على الضفة اليسرى للنهر بقرية الاقلته على مقربة من تمثالى ممنون ومن مدينة أبو . حتى اذا كان اليوم التاسع عشر انتقلنا الى الضفة المقابلة فبقينا فى الأقصر

الى التاسع والعشرين ، واخيرا عدنا الى اسنا التى مكثنا فيها للمرة الثالثة الى ١٤ سبتمبر . فنكون قد سلخنا فى هـذه المدينة ٢٥ يوما فى ثلاث زيارات .

لم تكن بى حاجة للتعريج على قنا التى سبق أن استقررنا فيها حوالى شهر حين صعدنا مجرى النيل ، ولكننى كنت قد اجتزت اقليم جرجا من غير أن أتوقف فيه مع أنه أهم أقاليم الصعيد ، وكان بودى كثيرا أن أجمع منه بعض معلومات ، ولذلك مكثت فيه من يوم ١٢ الى يوم ٢٠ من شهر سبتمبر ، وقضيت ثلاثة أيام فى أخميم على الضفة اليمنى للنيل ، ثم هبطنا مجرى النيل الى أسيوط فبلغناها فى اليوم السادس من شهر فنديمير عام ٨ (٢٥ سبتمبر ١٧٩٩) .

كانت مياه الفيضان التى تغمر الحقول قد غيضت وتسنى لى أن أرى البذار فى بدئه . وكان الجنرال «ديزيه» قد اتخذ معسكره فى أسيوط منذ حين يرقب فيها حركات مراد بك ، ثم وثب فى أول اغسطس ليتعقبه ويدفع به الى الصحراء فيما وراء الفيوم ويحمى الضفة اليسرى من البحر اليوسفى ، فصحبته فى هذه النقلة ، ولكن لم تنقض عشرة أيام حتى جاءه نبأ سفر القائد العام الى فرنسا مع الامر الصادر اليه بأن يعود الى القاهرة ، فتحتم من جراء هذا عدولى فى هذه الدفعة عن زيارة أقليم الفيوم ، وعدنا الى المنيا ومنها استقللنا المراكب النيلية يوم ١٤ اكتوبر عائدين الى القاهرة فوردناها يوم ١٦ بعد غياب طال سبعة أشهر .

كان الجنرال كليبر الذى تولى القيادة العليا للجيش قد غير نظام أعمال المعهد الفرنسى المصرى ولجنة الفنون ، فألف عدة لجان لجمع أهم ما يجدر بالاستبقاء من الوثائق المختلفة ، وقد ألحقت بلجنة الزراعة والتجارة ، فقضيت جزءا من شهرى نوفمبر وديسمبر فى تنسيق المواد التى كنت قد ظفرت بها فى الوجه القبلى ، وكذلك فى التماس مواد جديدة أستعد بها لما يقتضيه عملى فى اللجان التى كنت عضوا بها . فزرت فى هذين الشهرين سهول هليوبوليس والاهرام وصقارة وسلخت فيها عدة أيام . وفى هذه الايام تيسر لى الاتصال بأهم تجار القاهرة من مسيحيين وأتراك ، فحصلت على المعلومات الاولية الخاصة بتجارة مصر فى هذا الوقت مما سأبسطه فى سياق هذه الفذلكة .

فى ٢٤ ديسمبر سنة ١٧٩٩ أتيح لى أن أرود الطريق بين القاهرة والسويس من وادى التيه ، فبلغنا ذلك المرفأ فى يوم ٢٨ بعد السير أربعة أيام ، واقمنا فيه الى يوم ٢٢ يناير سنة ١٨٠٠ ، فوقفت على معلومات جديدة أضفتها الى ما كنت قد ظفرت به منها لتعرف تجارة مصر مع بلاد

العرب . واختصرنا طريقنا فى العودة ماريز بين المقطم وبركة الحاجى فبلغنا القاهرة فى ٢٤ يناير .

كانت مصر فى تلك الآونة مهددة بالجيوش العثمانية التى ماعتمت أن اجتاحتها ، فتحتم علينا أن نفتتحها ثانية . وتم لنا هذا الفتح بعد موقعة هليوبوليس وقد بقيت فى الجيزة طيلة المدة التى انقضت بين هذه المعركة وبين احتلالنا الجديد لمصر العليا . فشغلت هذا الوقت فى تسويد المعلومات التى كنت قد جمعتها عن الزراعة فى ضواحى القاهرة .

لم تسافر الحاميات المخصصة لاحتلال مصر العليا الا فى ١٠ مايو ، فصحبت القائد « زايونشيك » الذى قلد الحكم فى اقليمى بنى سويف والفيوم ، وسرنا برا مع مشاته على الضفة اليسرى للنيل حتى بلغنا بنى سويف يوم ١٣ مايو .

هذا السير البطىء بجيش غير قليل العدد وسع لى فى الوقت للفوز بمعلومات جديدة عن الزراعة فى المنطقة التى كنت أجتازها .

وبعد قضاء ثلاثة أيام مع القائد « زايونشيك » زرت اقليم الفيوم وجبته من جميع نواحيه مرافقا قومندان الحملة الذى كان يجبى الضرائب. فمكثت به من ١٧ مايو الى ٢٣ يونيه ، وفى هذا اليوم برحت بنى سويف فى حرس من ستة قواصة لزمونى الى ان بلغت القاهرة بعد ثلاثة أيام .

قتل القائد « كليبر » يوم ١٤ يونيه وانتقلت قيادة الجيش الى يدى غيره . وقد بقيت فى القاهرة نحو خمسة أشهر مرتقبا الوقت الملائم لاجوب انحاء مصر السفلى ، وكان الفيضان فى تلك السنة مرتفعا جدا فوجب الانتظار الى أن تجف الاراضى ليتسنى لى أن أتفقد الدلتا بلا عناء.

أخيرا سافرت يوم ١٠ ديسمبر فجبت أولا اقليم المنوفية من الجنوب الى الشمال ، وقضيت وقتا فى طنطا ، ثم بلغت فرع النيل الذى يمر برشيد تجاه نقطة الرحمانية ، ومنها اتجهت شرقا الى سمنود على فرع دمياط مارا بالمحلة الكبرى .

تركت سمنود يوم ٣١ ديسمبر وركبت ترعة التعبانية التى تصب فى بحيرة البرلس . وبعد أن جزت هذه البحيرة ليلا وصلت الى بلطيم وهى أكبر بلدة من البلاد القائمة على اللسان الذى يفصل هذه البحيرة عن البحر . فسافرنا فى يوم ٢ يناير سنة ١٨٠١ متتبعين البحيرة حتى أدركنا قرية « روس » الواقعة الى يمين النهر ازاء رشيد .

كان القائد « زايونشيك » متوليا الحكم فى رشيد فبقيت معه الى يوم ٩ ، وهنا كما فى الفيوم هيأ لى بأتم رعاية كل الوسائل المؤدية الى تيسير مباحثى .

عدت فعبرت النيل عند مصبه ، وتتبعت شاطىء البحر مسيرة يومين الى أن بلغت بوغاز البرلس وهو المصب الرئيسى لمياه هذه البحيرة فى البحر . ولما كانت المسافة بين هذا البوغاز ودمياط ثلاثة أيام فقد انتهينا الى دمياط يوم ١٣ يناير .

كانت هذه المرة الثانية التى زرت فيها تلك المدينة ، وكنت قد أقمت فيها اضطرارا منذ سنتين نحو شهرين ، فاستكملت ما كنت قد بدأت بأخذه من المعلومات عن تجارة سوريا وعن المزروعات الخاصة بهذه المنطقة من القطر المصرى . وقد مكثت فيها الى يوم ١٨ يناير ثم ذهبت من دمياط الى المنزلة ، وهى قرية كبيرة تسمت باسمها البحيرة التى تغطى بمياهها الجانب الشرقى من الدلتا . وبعد ذلك زرت مصايد المطرية ، وفى يوم ٢٥ يناير يممت المنصورة مصعدا فى ترعة اشمون ، وامتدت اقامتى فى المنصورة من يوم ٢٥ الى ٢٧ يناير ومنها قصدت الى صان هابطا اليها من بحر مويس . ومن صان ذهبت الى الصالحية فبلغتها يوم ٣٠ وفى يوم أول فبراير سافرت الى بلبيس ، وأخيرا عدت الى القاهرة يوم ٤ فبراير .

بعد رجوعى الى القاهرة بوقت قصير توالت حوادث الحرب بسرعة تعطل معها كل انتقال وكان لابد لى من الالتحاق بأحد الجيوش ، فالتحقت بالجيش الذى تحت امرة القائد « بليار » الى أن أبحرت من أبو قير فى أول شهر اغسطس .

من مطالعة خطط السير التى ذكرتها يرى أن المباحث التى ازمع كتابتها قد امتدت الى جميع أقاليم القطر المصرى ، وأن المثابرة والعناية اللتين بذلتهما فى جمعها تكسبان نتائجها من الضبط والدقة نهاية القدر المتيسر فى مثل هذا العمل . وانما كان غرضى الخاص من هذا العمل كما قدمت ، هو تعرف الحالة الحاضرة للزراعة والصناعة والتجارة فى القطر المصرى ، فجاء بذلك تقسيمه طبيعيا تحت كل من هذه العناوين .